



مركز البحوث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

التقرير نمف الشهري

تحليل للتطورات السياسية
والأمنية في «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com



**مركز الدراسات
ال فلسطينية والاستراتيجية**

تحليل نصف شهري للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

- ١ . إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمم.
- ٢ . الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.
- ٣ . بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.
- ٤ . إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

إسقاط الطائرة الروسية في سوريا وتداعياته

١ - مدخل:

هناك من يقول بأن روسيا تعلم بأي عملية عسكرية إسرائيلية في سوريا قبل حصولها. وهذا في الحقيقة أمر واقع وفقاً لاتفاقات وتفاهات ثنائية منجزة من قبل، والطرفان أعلننا ذلك أكثر من مرة، وفي السياق ربما يكون غيباً من يظن بأن الروس سيدخلون الصراع العربي-الإسرائيلي بما لا يخدم مصالحهم عالمياً، وعلى هذا الأساس يطرح السؤال: هل تغير الكارثة التي ألمت بسلاح الجو الروسي فوق الأراضي السورية بعض شروط اللعبة بينهما؟.

لقد أسقطت الطائرة الحربية الروسية "إيل-٢٠" بينما كانت تقوم بمهمة استطلاع فوق منطقة خفض التصعيد بإدلب، بصاروخ "صديق"، حسبما ذكر، ولكن المشكلة كانت في ما أعلنه نائب قائد فوج الصواريخ الروسية المضادة للطائرات في سوريا، فيكتور خوستوف وهو أن الطائرات الحربية الإسرائيلية تسوّرت خلف طائرة الإستطلاع الروسية "IL-20"، فاندمجت علامات تعريف كل من طائرتي الإستطلاع "IL-20" وطائرات "F-16" الإسرائيلية، أي بشكل أدقّ وبلا دخول في تفاصيل عسكرية، ان "الإسرائيليين استخدموا نظام "التمويه الجوي"، فجمعت قاذفاتهم حول "إيل ٢٠" الضخمة على شكل "كومة"، فحوّلوها ضحية لعملياتهم". وبعدما كانت روسيا هي أمل "إسرائيل" الوحيد في الوصول إلى أهدافها في سوريا، كون أن موسكو هي حليفة الدولة السورية من جهة وتحفظ بعلاقات جيدة مع "إسرائيل" من جهة أخرى، وبعد إصرار الكيان الإسرائيلي المستمر وتوجيه طلباته لموسكو التي مفادها عدم اقتراب القوات السورية من الجولان المحتل ورفض روسيا لتنفيذ تلك الطلبات لأسباب تتعلق بالعلاقة مع الحكومة السورية، جاءت حادثة الطائرة لتقلب المعادلة ويصبح "الهم الإسرائيلي" هو كسب الرضا الروسي بعيداً عن الأحلام الصهيونية في سوريا، ما يشير إلى أن هذه الحادثة قد قلبت السحر على الساحر.

٢ - معادلة العلاقات الإسرائيلية الروسية في سوريا:

لقد استطاعت "إسرائيل" أن تبني تفاهات مع روسيا حول مصالحها الأمنية في سوريا، وتتمثل هذه المصالح في منع نقل السلاح من الساحة السورية إلى لبنان، ومنع اقتراب الحرب الداخلية السورية من الحدود

الإسرائيلية. وفي أعقاب اندلاع الحرب الأهلية في سوريا عام ٢٠١١، كان دور "إسرائيل" في سوريا مقيداً ومثيراً للجدل. فعلى النقيض من بعض الدول التي دعمت بشكل مباشر إما الحكومة السورية أو الجماعات الارهابية المختلفة، اختارت "إسرائيل" في الظاهر عدم دعم أي حزب ذا صلة بالحرب الأهلية السورية ونأت بنفسها عن صراعات طويلة الأمد. ولكن من ناحية أخرى، شنت عشرات الغارات الجوية ضد أهداف عسكرية داخل سوريا منذ ذلك الحين، بعد أن أصبحت المؤسسات العسكرية والاستخباراتية الإسرائيلية، تعتقد أن سوريا قد أصبحت بالفعل جبهة مواجهة مهمة ومعقلاً لإيران وجماعات مقاومة مسلحة أخرى تدعمها طهران. لذلك، تحتاج "إسرائيل" إلى الحفاظ على العلاقات الوثيقة مع موسكو. وهي قلقة من أن هذا الحادث سيشتل أنشطة جيشها، ويمكن إيران من نقل الأسلحة إلى حزب الله والجماعات المقاومة الأخرى. وعزز تردد الولايات المتحدة في المشاركة المباشرة في الحرب الأهلية السورية، ونفذ طهران المتنامي في سوريا حاجة "إسرائيل" إلى إقامة علاقة أوثق مع روسيا. وبالنسبة لها، فإن موسكو هي الشريك الموثوق الوحيد الذي يمكن أن يدعمها في العديد من المحافل الدولية المهمة. أما روسيا، فتعتبر "إسرائيل" شريكاً مهماً لها على الساحة الدولية، لأسباب عدة: فقد أصبح أكثر من مليون يهودي روسي هاجروا إلى فلسطين المحتلة جسراً مهماً بين الروس والإسرائيليين. ولا تزال اللغة الروسية لغة يومية شعبية لدى العديد من هؤلاء اليهود.

وتعتبر روسيا "إسرائيل" شريكاً مهماً لها حول القضية السورية، وأنه يمكن تحويل دورها المحدود في سوريا بسهولة إلى تأثير مهم في ساحة المعركة السورية. ففي الثمانينات، تدخلت "إسرائيل" في الحرب الأهلية اللبنانية من خلال احتلالها المباشر لجنوب لبنان ودعمها لبعض الجماعات الطائفية ضد أخرى. وتتنظر روسيا بعين الاعتبار لمخاوف "إسرائيل" ونفوذها في سوريا عند بدء إعادة البناء السياسي بعد الحرب في سوريا. وتعتبر موسكو "إسرائيل" بوابة مهمة لرأب الصدع مع الولايات المتحدة. فتحالف تل أبيب التقليدي «غير القابل للكسر» مع الولايات المتحدة وصداقة نتتياهو الشخصية مع الرئيس الأميركي دونالد ترامب يجعلها شريكاً لا غنى عنه لموسكو، إذا أرادت تخفيف حدة التوتر مع واشنطن.

وعلى الرغم من أن تحطم الطائرة العسكرية الروسية مسألة حساسة لكل من "إسرائيل" وروسيا، فإن كلاً من موسكو وتل أبيب تحتاجان إلى بعضهما بعضاً بشأن القضية السورية والمسائل الدولية والإقليمية الأخرى. وقطعاً لن يتم قطع قناة الاتصالات العسكرية، التي تم الحفاظ عليها لسنوات منذ اندلاع الحرب الأهلية السورية، ولن يتم تهديد العلاقات الثنائية بين الجانبين.

٣ - آلية عدم الاشتباك:

أقامت "إسرائيل" وروسيا "آلية عدم الاشتباك" في عام ٢٠١٥ مع بدء تدخل الجيش الروسي الجوي في سوريا بهدف تفادي الحوادث العسكرية المؤسفة. وقد صعدت "إسرائيل" في السنوات الأخيرة ضرباتها ضد مواقع سورية وما تقول إنه قوافل أسلحة مخصصة لحزب الله وكثفت في الأشهر الأخيرة غاراتها على أهداف إيرانية في سوريا. ومعلوم ان إيران وحزب الله اللبناني، وهما ألد أعداء "إسرائيل"، يحاربان إلى جانب روسيا دعماً للقوات السورية والرئيس بشار الأسد. في حين أن إسرائيل من الناحية التقنية في حالة حرب مع سوريا. وقد منيت "آلية عدم الاشتباك" من قصور خطير قبل فترة وجيزة عندما أسقطت طائرة إيلوشين-٢٠ خطأً بنيران الدفاعات السورية التي كانت ترد على غارة إسرائيلية وقتل أفراد طاقمها الروسي الخمسة عشر.

وألقي بوتين علانية اللوم على تصرفات "إسرائيل". واتهم الروس الإسرائيليين بأنهم لم يبلغوهم سوى قبل دقيقة واحدة فقط بالهجوم، وحتى أنهم استخدموا الطائرة الروسية للاحتماء من النيران السورية، وهو ما تنفيه "إسرائيل" بشكل قاطع. وقبل أن يستقل الطائرة لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، عبر نتانياهو عن "حزنه العميق" لمقتل جنود روس، في ما بدا أنه رد على توجيه الروس اللوم له على نكرانه لجهودهم، عبر حديثه عن "النجاح الكبير" الذي حققته آلية عدم الاشتباك. وأضاف نتانياهو "لقد اتفقنا مع بوتين على أن تلتقي مجموعات عمل من الجيشين الإسرائيلي والروسي قريباً". ولكن في النهاية، فإن "إسرائيل" ترى أن المخاطر المحدقة بها كبيرة ولا يمكنها القبول بفرض شروط عليها، وفق الخبراء الإسرائيليين.

ويقول افرام انبار، رئيس معهد القدس للدراسات الاستراتيجية إن الروس لم ينسوا بتاتاً تجربة عام ١٩٧٠ عندما دمرت طائرات الفانتوم والميراج الإسرائيلية في غضون دقائق طائرات الميغ السوفياتية المتمركزة في مصر. ويشكك ليرمان في وجود استعداد للتصعيد لدى الروس. ويقول إنهم لا يريدون أن يهددوا إنجازاتهم في سوريا، والمظاهر "النادرة" "للسلطة المستعادة" على الساحة الدولية. مع ذلك لا يعتقد الخبير الروسي فلاديمير سوتنيكوف بأن العلاقات المشتركة ستشهد تدهوراً خطيراً. ويقول إن "ما يقلق موسكو فحسب في هذه اللحظة هو التوصل إلى تسوية للنزاع السوري نظراً لانتشار قواتها فيها. فموسكو تريد أن تقلص بأي طريقة مشاركتها في هذا النزاع وإسقاط طائرة إيلوشين يبعدها عن هذا الهدف". ويضيف أن "إسرائيل شريك مهم جداً لموسكو، فهي حليف الولايات المتحدة التي تأمل موسكو في تجديد الحوار معها".

٤ - حادثة الطائرة وتحميل المسؤولية:

عرض الناطق باسم وزارة الدفاع الروسية إيغور كوناشينكوف، أمام الصحافيين معلومات تفصيلية أرفقت بصور وخرائط حول ملابس إسقاط الطائرة "إيليوشين ٢٠" الروسية في سورية في ١٧ أيلول الماضي. وبدأ أن المعطيات التي قدمها نتيجة التحقيقات التي أجرتها موسكو بعد تحليل صور الأقمار الصناعية وأنظمة الرصد والمراقبة المختلفة، لم تختلف في جوهرها كثيرا عن النتائج الأولية التي أعلنتها موسكو بعد الحادثة مباشرة، وحملت من خلالها اتهامات للجانب الإسرائيلي بالتسبب في تعريض الطائرة لنيران الدفاعات الجوية السورية.

وأوضح الناطق العسكري تسلسل الأحداث بالتفصيل ليلة سقوط الطائرة، وقال إنها "كانت عائدة من مهمة لمراقبة منطقة خفض التصعيد بمحافظة إدلب وعلى متنها ١٥ عسكريا روسيا، بالتزامن مع انطلاق سرب مكون من ٤ مقاتلات إسرائيلية (إف ١٦) لإنزال ضربة مفاجئة بعدد من المنشآت الصناعية الموجودة في الجمهورية العربية السورية. وزاد أن الطائرات الإسرائيلية اتخذت مواقع لشن الهجمات فوق البحر على مسافة ٩٠ كيلومترا غرب مدينة اللاذقية. ثم قامت موظفة اتصال في قيادة القوات الجوية الإسرائيلية برتبة عقيد، بإبلاغ قيادة مجموعة القوات الروسية في سوريا عبر قناة الاتصال لمنع التصادم العسكري، بالضربة المقبلة على مواقع سورية، موضحا أن البلاغ تضمن إشارة إلى أن "إسرائيل" سوف تُغير على مواقع في شمال سورية في الدقائق القريبة المقبلة.

وتابع أنه بعد مرور دقيقة واحدة على وصول البلاغ شنت ٤ مقاتلات إسرائيلية (إف ١٦) ضربات جوية على منشآت صناعية في محافظة اللاذقية بقنابل موجهة من طراز (جي بي يو ٣٩)، مستخلصا أن الطرف الإسرائيلي قام بإخبار مجموعة القوات الروسية بتنفيذ عملياته العسكرية ليس بشكل مسبق؛ بل تزامنا مع بدء الغارات، ما يعد انتهاكا مباشرا للاتفاقيات الروسية - الإسرائيلية الموقعة في عام ٢٠١٥ للحيلولة دون وقوع حوادث تصادم بين قواتنا المسلحة في سورية. وبالإضافة إلى مشكلة توقيت وصول البلاغ، قال الناطق الروسي إنه قدم إحداثيات خاطئة، لأن البلاغ تحدث عن أهداف في شمال سوريا، في حين أن مواقع الضربات كانت في غرب سوريا بمحافظة اللاذقية. وزاد أن لدى موسكو تسجيلات صوتية للمحادثات مع الجانب الإسرائيلي يثبت صحة المعطيات المقدمة.

ولفت إلى أن خطورة تقديم معلومات خاطئة تكمن في أن القيادة العسكرية الروسية أمرت قائد طاقم الطائرة إيلوشين ٢٠ التي كانت تحلق فوق شمال سورية، بمغادرة المنطقة والتوجه جنوبا للعودة إلى قاعدة "حميميم"، لكن شن العملية العسكرية في غرب سورية في ريف اللاذقية أسفر عن وضع الطائرة الروسية في مجال عمل الدفاعات الجوية السورية، مشيرا إلى أن ما وصفه بـ"التضليل الذي قامت به الضابطة الإسرائيلية بشأن منطقة غارات المقاتلات الإسرائيلية، لم يمنح الطائرة الروسية (إيلوشين ٢٠) فرصة الخروج إلى منطقة آمنة".

ووفقا للناطق العسكري الروسي، فإن الطيران الإسرائيلي نفذ مناورة أخرى كانت قاتلة بالنسبة للطائرة الروسية، لأنه بعد تنفيذ الغارة احتلت المقاتلات الإسرائيلية موقعا لتنظيم الدورية الجوية على مسافة ٧٠ كيلومترا غرب الساحل السوري. وشغلت المقاتلات تشويشات إذاعية وبدا أن المحتمل أن تستعد المقاتلات لشن غارة جديدة. لكن بعد دقائق أقدمت إحدى الطائرات الحربية الإسرائيلية على مناورة جوية باتجاه الساحل السوري واقتربت من طائرة (إيلوشين ٢٠) التي كانت على وشك البدء بالهبوط. وظنت الوحدات العسكرية التابعة لقوات الدفاع الجوي السوري ذلك هجوما جديدا للطيران الإسرائيلي، مما دفعها إلى إطلاق أنظمة دفاعية.

وقال كوناشينكوف إنه لم يكن ممكنا ألا يدرك الطيار الإسرائيلي أن مساحة السطح العاكس الحقيقي لطائرة (إيلوشين ٢٠) تزيد على سطح جسم المقاتلة (إف ١٦) بشكل كبير، الأمر الذي يعني أن الطائرة الروسية هي التي ستصبح هدفا مفضلا للصاروخ المضاد للجو.

وأضاف أن الإسرائيليين يعلمون بأن لدى القوات المسلحة الروسية والسورية منظومات مختلفة للتعرف على "صديق - عدو"، وأنه "يمكن لمحطات الرادار السورية أن تعدّ الطائرة (إيلوشين ٢٠) ضمن المجموعة المستهدفة من المقاتلات الإسرائيلية". وأضاف: "أكد بشكل خاص على أن المقاتلات الإسرائيلية كانت تراقب الطائرة الروسية مستخدمة إياها غطاء من الصواريخ المضادة للجو، ومستمرّة في مناوراتها في هذه المنطقة".

روسيا حملت "إسرائيل" مسؤولية سقوط طائرتها عبر بيان وزارة الدفاع الاول، بينما عادت عبر بيان الكرملين لتقول بأن المسؤولية المباشرة لا تقع على عاتق "إسرائيل" وأن وطأة الحادثة أقل من تلك التي تسببت بها تركيا.

هذا الواقع يعود بالدرجة الأولى إلى شبه إتفاق غير معلن، بين تل أبيب وموسكو، يقضي بالأبداً يؤثر تحرك أي منهما على مصالح الآخر على الساحة السورية، والدليل هو عدم منع الجانب الروسي الضربات التي كانت توجهها الطائرات الإسرائيلية إلى أهداف تزعم تل أبيب بأنها متعلقة بالوجود الإيراني هناك، أو أخرى متعلقة بنقل أسلحة إلى "حزب الله" في لبنان، بالرغم من قدرته على هذا الأمر.

الرئيس الروسي فلاديمير بوتين من ناحيته أكد لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو أن موسكو تنطلق من أن تصرفات الطيران الإسرائيلي هي السبب الرئيس لمأساة طائرة "إيل ٢٠" الروسية.

وأشار الكرملين في بيان أصدره في أعقاب المكالمات الهاتفية بين بوتين ونتنياهو، إلى مبادرة من الجانب الإسرائيلي، إلى أن موسكو وتل أبيب واصلتا مناقشة ملابسات حادث إسقاط الطائرة الروسية، آخذاً بعين الاعتبار أن المعلومات التي قدمها العسكريون الإسرائيليون عن عمليات سلاح الجو الإسرائيلي فوق الأراضي السورية تتناقض مع استنتاجات وزارة الدفاع الروسية.

وأكد بوتين أن "الجانب الروسي ينطلق من أن تصرفات الطيران الإسرائيلي بالذات أصبحت السبب الرئيس للمأساة".

وشدد على أن "القرارات التي اتخذتها موسكو لتعزيز القدرات القتالية للدفاع الجوي السوري تتماشى مع الوضع الراهن وتهدف قبل كل شيء إلى حماية العسكريين الروس الذين يؤدون مهام محاربة الإرهاب الدولي، من أي خطر محتمل".

٥ - نتائج واستنتاجات:

الملاحظ أن الروسي الذي كان في السابق لا يقترب من طائرات العدو، قد أوقعه الصهيوني في فخ الاستهداف بعد أن أغمضت القوات الروسية عينها عن الاعتداءات، وكانت ذراعها بطيئة على الزناد، ما يؤكد

انه كانت هناك علاقة تفاهم واضحة، تمكن الجانب الروسي والكيان، من تنفيذ مصالحهما في سورية، من دون أن يتعارض ذلك مع مصالح كل منهما، وهذا ضمن تفاهم مركب ضمن سياسات مدروسة، ما يعني في النتيجة أن كارثة الكمين الجوي الصهيوني للطائرة الروسية، لن توصل إلى حدّ القطيعة، بل على العكس، هي كحادثة أو ضربة، لا تحتمل التعقيد المتفاقم في العلاقات بين الجانبين أكثر ممّا حصل.

لكن الأرجح أن يتم ترتيب تفاهمات جديدة تفرضها موسكو على الكيان الغاصب، سترسم مجموعة إجراءات تمنع الكيان من أن يمدّ يده أكثر في الجغرافية السورية القريبة من القوات الروسية، وستسحب بساط الحرية من تحت أجنحة طائرات العدو الإسرائيلي، ضمن مساحة محددة، لئبقي فلاديمير بوتين، يده هي الأعلى والأقوى، كما حدث في ملف إيصال تركيا للتوتر مع حلف الناتو، ودخولها في معترك مباحثات استانا، وما حصد من نتائج بعد ذلك، كل ذلك سيشكّل لبنة في مدماك الدور الروسي في المنطقة.

الأيام القليلة المقبلة، ستؤكد أن هذا الاعتداء قد ترك أثراً سلبياً واضحاً في العلاقات بين الكيان الإسرائيلي وروسيا الاتحادية، لكنه لن يصل إلى درجة الاحتراب، وما نتمناه هو، ان يقتنع الحليف الروسي، بأن هذا الكيان لا يملك أخلاقاً تلزمه بوعود، أو عهود، وأن التعامل ضمن قيم أخلاقية معه لن يجدي نفعاً، ويمكن للحليف الروسي أن يُعيد حساباته بعد ذلك، ولو من باب السماء السورية.

من هذا المنطلق، لم يمكن من المتوقع أن يعمد الجانب الروسي إلى أي إجراء مباشر قد يؤدي إلى توتير الأجواء، لكن في المقابل سعى إلى تأمين حماية أكبر لوجوده على الساحة السوريّة، من خلال رسم خطوط حمراء جديدة للتدخلات الإسرائيلية، بشكل لا يهدد هذا الوجود كما حصل في سماء اللاذقية. وفي هذا السياق أفادت المعطيات المتوفرة والمعلنة بأن روسيا لن تقف مكتوفة الأيدي، وحيث أن ردّها لن يكون مباشراً بوجه "إسرائيل" فإنه أتى عبر تضيق مجالها الجوّي فوق سوريا، من خلال تزويد الجيش السوري بمنظومة الدفاع الجوي "إس-٣٠٠" ليتولى هو حماية الأجواء. وبالتالي كان من الواضح سلفاً بان التوقعات بحصول مواجهة مباشرة بين روسيا و"إسرائيل" لن تتحقق لأن علاقات البلدين ليست عاديّة بل قويّة واستراتيجية، إذ يتواجد في روسيا لوبي اسرائيلي لديه القدرات الكافية لممارسة الضغط والوصول لتحقيق أهدافه السياسيّة.

ويبدو أن هذا اللوبي الاسرائيلي هو من يجعل روسيا تغضّ النظر دائماً عن التحركات الاسرائيليّة فوق سوريا، والدليل هو الإعلان الروسي بأن تل أبيب أبلغت موسكو عن الغارة التي نفذتها لكنّ المهلة لم تكن كافية كي تسحب الطائرة التي أسقطت من قبل الدفاعات الجوية السورية، أي أن موسكو تعرف مسبقاً بأيّ

تحرك إسرائيلي. وقد حمل الاتصال الهاتفي بين رئيس حكومة الاحتلال الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، والرئيس الروسي فلاديمير بوتين، للمرة الثانية منذ اندلاع أزمة إسقاط الطائرة الروسية فوق الأجواء السورية دلائل على أن الطرفين، بالرغم من التصعيد الخطابي بينهما، والتحصن وراء رواية كل طرف منهما حول ظروف وأسباب سقوط الطائرة، لا يزالان يملكان من المصالح المشتركة في سورية ما يكفي لاستعادة عمل آلية التنسيق العسكرية بين الطرفين، والاتفاق على لقاء قريب بين الطواقم المهنية للبلدين لمواصلة التنسيق الأمني بينهما.

في غضون ذلك، كرّر نتنياهو أنه إلى "جانب اتفاه مع الرئيس بوتين على اللقاء القريب بين الطواقم المهنية للجيش الروسي والجيش الإسرائيلي، فإن الحكومة (الاحتلال) لا تعزم تغيير سياستها الحالية في سورية، والتي تقوم على استهداف مواقع إيرانية وقوافل السلاح لحزب الله، ولا التنازل أو وقف التنسيق العسكري مع الجيش الروسي"، بما أكد على استمرار وجود خطوط عريضة للتفاهم الروسي الإسرائيلي في سورية وعلى الأراضي السورية. لكن الأمور قد تتغير إذا ترجمت روسيا تهديداتها الأخيرة بشأن تزويد سورية بمنظومات الصواريخ "إس ٣٠٠"، لكونها تشكل في حال تسليمها فعلاً للجيش السوري واعطائه صلاحية استخدامها، نقلة نوعية في قواعد الاشتباك وفي الوضع الاستراتيجي لموازن القوى المختلفة، بما في ذلك التأثيرات المحتملة لنشر مثل هذه المنظومات تحت سيطرة النظام السوري، على مجمل الوجود الأجنبي في سورية، بما في ذلك نشاط قوات التحالف الغربي والقوات الأميركية العاملة شمالي سورية. وكانت المصادر الإسرائيلية قد أعلنت أن "نتنياهو سيبحث في لقائه مع الرئيس الأميركي دونالد ترامب، أيضاً، ملف الأزمة الروسية - الإسرائيلية، بما يضاف إلى ما سبق أن أعلنه وزير الخارجية الأميركي مايك بومبيو من أنه ينتظر لقاء نظيره الروسي سيرغي لافروف، على هامش أعمال مؤتمر الجمعية العمومية للبحث في سبل التوصل إلى أساس للتعاون المشترك في هذا الملف". وبدا أن التحرك الأميركي وكسر الصمت جاء في وقت تتخبط فيه "إسرائيل" في ظلّ عدم اليقين من الخطوات الروسية العتيدة، خصوصاً في ظلّ الفجوة والتناقض بين التصريحات واستمرار قنوات الاتصال الجارية بين بوتين ونتنياهو، التي عُدّت مصدراً للتفاهم الإسرائيلي بأن الأزمة مع روسيا عابرة، وبين التصريحات المتلاحقة بشكل تصعيدي من وزارة الدفاع الروسية، ومواصلة الأخيرة التهديد بتزويد سورية بمنظومات من طراز "إس ٣٠٠"، من دون أي تطرق إلى خيارات روسية أخرى مثل تزويد سورية بالمنظومات الأكثر تطوراً وهي "إس ٤٠٠" التي من المفترض أن تحصل عليها تركيا العام

المقبل. وتقرأ "إسرائيل" هذا الأمر بنوع من التشكيك بجدية التهديدات الروسية بشأن تسليم هذه المنظومات لقوات النظام، خلافاً لما يبدو عليه التعامل الإسرائيلي مع الرسائل الروسية المتعلقة بالمنظومات الإلكترونية الخاصة بتشويش عمل شبكات إنذار الطائرات فوق الأجواء السورية، فيما تنتظر تل أبيب انتهاء التدريبات الروسية، التي أغلقت بموجبها المجال الجوي السوري بين قبرص والسواحل الغربية لسورية، بحجة "إجراء تدريبات عسكرية". وتبرز حالة التخبّط بشكل خاص في ظل اتفاق معلقين ومصادر عسكرية مختلفة في "إسرائيل"، على أن قواعد الاشتباك وقواعد اللعبة في الأراضي السورية قد تكون تغيرت، وأن الأمر سيبقى رهن الامتحان في حال قررت دولة الاحتلال المغامرة بشن عملية جديدة في سورية، والمجازفة برد روسي مغاير غير الذي اعتادت عليه حتى الآن، وسمح لها بشن مئات الغارات في الأراضي السورية من دون اعتراض روسي فعلي. ومع أن الإعلام الإسرائيلي أبرز على نحو ملفت للنظر حقيقة أن الجيش الإسرائيلي يعرف طبيعة منظومات "إس ٣٠٠" وقادر على التغلب على التحديات التي تفرضها هذه المنظومات، وقدرته من جهة ثانية على استهداف المواقع الإيرانية من خلال هجمات صاروخية، إلا أن الصحافة الإسرائيلية اعتبرت أن التداعيات الأخطر للأزمة هي في تأثيرها السلبي المحتمل على العلاقات الثنائية بين روسيا و"إسرائيل".

ورأى محللون أن تراجع هذه العلاقات قد يشجع أطرافاً أخرى في المنطقة على تجاوز "الخطوط الحمراء" التي وضعتها "إسرائيل" لغاية الآن في ما يتعلق بسورية وعدم تدخلها ضد النظام السوري، ما دام يقبل مع شركائه بهذه الشروط، وعلى رأسها حرية سلاح الجو الإسرائيلي في ضرب قوافل السلاح المتطور ومنع وصوله إلى حزب الله في لبنان، والتزام نظام الرئيس الأسد باتفاقية فك الاشتباك من عام ١٩٧٤ وعدم نشر قوات خلافاً لبنود الاتفاق المذكور في الجانب المحرر من هضبة الجولان.

إن الأزمة الروسية . الإسرائيلية تختلف في جوهرها عما هو مُعلن من تراشق إعلامي وتبادل للاتهامات، وقد يكون من السابق لأوانه، في ظل المؤشرات المختلفة التي تؤكد وجود مصالح أساسية مشتركة بين روسيا و"إسرائيل"، التعويل على حادثة إسقاط الطائرة لجهة فرض روسيا حظراً جويّاً مطلقاً أمام الطائرات الإسرائيلية في الأجواء السورية، من دون أن يعني ذلك عدم توصل الطرفين إلى تفاهات جديدة تمنح الطرف الروسي بعض المكاسب لكنها لا تمسّ بجوهر التفاهات التي تم التوصل إليها بين نتنياهو و بوتين في كانون الأول ٢٠١٥.

٦ - تداعيات:

لقد اندلع سجال عالي النبرة، بين موسكو وتل أبيب حول إسقاط الطائرة العسكرية الروسية في سوريا. وارتفعت في مجلس الدوما الروسي أصوات تطالب بقطع العلاقات الدبلوماسية مع "إسرائيل"، وطالب عضو لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الإتحاد أوليغ ماروزوف بالتحدث مع إسرائيل "بلهجة متشددة" عن أسباب سلوكها "غير الودّي"، الذي لا يبرّره "أي نضال ضد الإرهابيين". ومن المهم بالنسبة له، حسب نوفوستي، معرفة لماذا لم تقم "إسرائيل" بالوقت المناسب بتحذير الجانب الروسي، وقامت طائراتها بالتستر بالطائرة الروسية العائدة إلى قاعدتها.

وعلى الرغم من حديث الرئيس الروسي عن "سلسلة ملابسات مأساوية عارضة" تسببت في إسقاط الطائرة، وذلك في محاولة للإلتفاف على النزاع القائم مع "إسرائيل"، رأت صحيفة الكرملين في السلوك الإسرائيلي "استفزازاً" من قبل الطيران الحربي الإسرائيلي.

وتقول الصحيفة في مقالة بعنوان "كيف سيؤثر استشهاد الطائرة" إيل ٢٠ على العلاقات الروسية الإسرائيلية"، أن الإستفزاز، الذي كلف حياة ١٥ عسكرياً روسياً نتيجة تحطم الطائرة، لا يمكن إلا أن يترك أثره على هذه العلاقات، خاصة في ما يتعلق منها بأعمال "إسرائيل" في سوريا.

وتلقت الصحيفة نظر "إسرائيل"، إلى "أنهم أخذوا يقترحون في روسيا" الآن اتّخاذ مختلف التدابير لمعاقبة "إسرائيل"، بما في ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية معها. روسيا لن تقطع هذه العلاقات، إلا أن إسقاط "إيل ٢٠" سوف تترتب عليه نتائج بالتأكيد. وتتساءل الصحيفة "عما تريده روسيا من إسرائيل، وما تريده إسرائيل من روسيا؟".

في معرض الإجابة عن التساؤل الذي طرحته الصحيفة تقول أنه، بعد أن بدأ الجيش الروسي عملياته في سوريا، كانت "إسرائيل"، مدفوعة بهاجس أمنها الذاتي، تسعى لإقامة صلات وثيقة مع روسيا في الحقلين العسكري والمخابراتي، وذلك لإدراكها أن روسيا أصبحت اللاعب الأساسي في سوريا، وتتعرّز مواقعها في الشرق الأوسط ككل. وكانت تعلن لموسكو، أن أعداءها هم "الدولة الإسلامية" و"حزب الله وإيران، وتطلب منها حق الدفاع عن مصالحها على أراضي الدول الأخرى، أي حق قصف الأراضي السورية واللبنانية.

أما العامل الأساسي الآخر والأهم، بحسب الصحيفة، الذي سمح ل "إسرائيل" بضرب سوريا، هو أن روسيا كانت مضطرة لتحمل الأعمال الإسرائيلية، لأن نجاح عملياتها في القضاء على القوى المُعادية للأسد في سوريا، لم يكن ممكناً إلا بالتنسيق مع مصالح كلٍ من تركيا و "إسرائيل" وإيران، وأخذ هذه المصالح بالإعتبار. وكانت روسيا توازن بين مصالح هذه الدول، لأنها تنفذ عملياتها السورية بقوات محدودة للغاية، هي

الطيران الحربي بشكل أساسي، وليست أبداً في وارد نشر قوة عسكرية كاملة في سوريا، لأن وجود مثل هذه القوة سوف يسمح لها بتجاهل مصالح تركيا و"إسرائيل". وإذا كانت روسيا قد تقبلت حتى الآن ضربات "إسرائيل" لهذه الأهداف أو تلك على الأراضي السورية، فإن تل أبيب قد اعتبرت الأمر طبيعياً، وليس شيئاً استثنائياً مؤقتاً. وليس هجوم طائرات F-16 الإسرائيلية الذي ترافق مع إسقاط طائرة "إيل ٢٠" الروسية، سوى نتيجة لاعتبار "إسرائيل" هذا. ولا يعذرنا إطلاقاً قولها أن هذه الطائرات قد هاجمت مواقع بنية تحتية للجيش السوري "كانت تنتج أسلحة قتل جماعي من أجل منظمة "حزب الله".

وإذا كانت "إسرائيل" تريد فعلاً الاحتفاظ بفرصة لما يشبه سلاماً ما، بحسب الصحيفة، فعليها أن تعتاد على أنه يجب عليها أن تراعي وحدة أراضي جيرانها. وعليها، في البداية، أن تكف عن مهاجمة أهداف تقع في محافظة اللاذقية البعيدة عن حدود إسرائيل، والتي توجد فيها قاعدة حميميم العسكرية الروسية، التي تعهد الرئيس بوتين باتخاذ إجراءات "سوف يراها الجميع" لتعزيز حمايتها".

من جانب آخر، وعلى عكس نبرة صحيفة الكرملين المرتفعة هذه، فإن صحيفة "NG" غير البعيدة عن الكرملين، تنقل عن الخبير في المجلس الروسي للشؤون الدولية أنطون مدراسوف قوله، بأن كل ما صدر عن القيادة الروسية كان يهدف لشرح مقتل العسكريين الروس للناخبين الروس، ولهذا كان ينبغي "تهديد إسرائيل برفع الإصبع". ويقول مدراسوف، بأنه يعتقد بأن روسيا و"إسرائيل" سوف تتفقان على إنذار مبكر أكثر لغارات الطيران الإسرائيلي، وعلى أن لا تكون الغارات على هذا القرب من الأهداف الروسية. وأقصى ما يمكن اتخاذه من خطوات مضادة، برأيه، هو تعزيز أجهزة الدفاع الجوي السورية من الناحية التقنية، لكن بما لا يعقد مهمة بلوغ الأهداف الإيرانية على الإسرائيليين، ما يهدد بتوسيع دائرة الإشتباك في سوريا من جديد. ويقول مدراسوف: "إن إسرائيل ضرورية للكرملين من أجل احتواء إيران على الأراضي السورية". وتنقل الصحيفة عن كبير الباحثين في معهد أوروبا التابع لمعهد الإستشراق ألكسندر شوميلين قوله، أن الجانب الروسي في أية مفاوضات مقبلة مع الإسرائيليين، سوف يركز على الشعور بالذنب، وسوف يتصنع الإسرائيليون أنهم يتفهمون الأمر، لكن سوف ينكرون كل شيء. وممارسة إنكار الوقائع في "إسرائيل" قد تكون، برأيه، أكثر تطوراً مما في روسيا. وهو يرى أن حادثة إسقاط الطائرة سوف تتراجع إلى مستوى اللكزات السياسية الصغيرة وتنتهي عند هذا الحد، وسوف يقال للعسكريين، الذين كان بودهم أن يردوا على الضربة، بأن يتوقفوا. لكن إسرائيل لن تتوقف أبداً عن قصف الأراضي السورية، بل هي لن تكف عن ذلك حتى لو أسقطت ٥٠ طائرة"، إذ أن المسألة "فائقة الأهمية" بالنسبة لوجودها، على حد قول شوميلين.

أما موقع "slate" الأميركي، فتساءل لماذا لا تستطيع روسيا فعل شيء مع البلدان، التي تقتل عسكريها في سوريا. وخلص إلى القول، بأن روسيا هي القوة الخارجية الأساسية في النزاع السوري، وتمتلك علاقات جيدة مع معظم اللاعبين الأساسيين الآخرين في هذا النزاع. لكن الكثيرين من هؤلاء اللاعبين هم في صراع مكشوف بين بعضهم البعض، الأمر الذي يحول دون أن تتمكن روسيا من الرد، حين يقتل أحد هؤلاء اللاعبين عسكريها، سواء كان عمداً أو بالصدفة. لكن يبدو أن الموقع المذكور تجاهل ما يقوله الروس أنفسهم، من أن الرد على قتل الروس، سواء كان من قبل الأميركيين أو الأتراك أو الإسرائيليين، محفوف بخطر الإنزلاق إلى حرب مختلفة عن التي تدور في سوريا حالياً، وتتطلب من الإمكانيات ما لا طاقة لروسيا على تحملها.

أسئلة ما بعد إسقاط الطائرة الروسية، من ناحية نظرية، قد لا تنتهي. لكن الأهم والحاضر على طاولة كل الأطراف المؤثرة والمتأثرة في الساحة السورية، يتعلق بتداعيات الحادثة ومستواها وحدودها: هل تفضي الحادثة إلى التآزيم والاشتباك بين الجانبين أو إلى نهاية التفاوض الروسي عن الاعتداءات الإسرائيلية في سوريا؟ أو إلى مجرد تغييرات نسبية، قد لا تزيد عن إلزام "إسرائيل"، بهامش أضيق من «حرية الحركة» الجوية والصاروخية، فوق السماء السورية؟.

إذا كان إسقاط الطائرة من شأنه أن يعقد العلاقة بين الجانبين، لكنها ليست سبباً للقطيعة أو للاحتراب. في ذلك، تتحمل موسكو أيضاً جزءاً من المسؤولية، كونها تتفاوض عن إعتداءات "إسرائيل" إلى الحد الذي باتت يدها «رخوة على الزناد». مسؤولية جزئية، وإن كانت "إسرائيل" تتحمل الجزء الأكبر والمباشر منها. مع ذلك، لا يستقيم أي تقدير للاتي، نتيجة لهذا التطور من دون العودة إلى العلاقة التي تجمع وتدير مصالح الجانبين. علاقة منعت تصادمهما حتى الأمس، كما تدفعهما لاحتواء أي تصادم عرضي، نحو الأسوأ.

وفي المحصلة نجد أن العلاقة الروسية - الإسرائيلية في الساحة السورية هي علاقة تفاهم تفضي إلى تمكين كل جانب تحقيق مصالحه سورياً، من دون أن يتعرض لمصالح الجانب الثاني. تفاهم خدم الجانبين طويلاً، وإن كان الأكثر استفادة هو الجانب الروسي، على رغم الانطباع الخاطئ حول الاستفادة الإسرائيلية الأكبر، نتيجة صورة الهجمات وضجيجها المفضية إلى خطأ في التقديرات. وكانت "إسرائيل" قد راهنت عام ٢٠١٥، كما غيرها في المحور الآخر، أن روسيا ستسارع إلى الهرب من المستنقع السوري، مع إمكان تكرار مشهد ما بعد الغزو السوفياتي السابق في أفغانستان. مع فساد هذا الرهان، حافظت "إسرائيل" على توقعات مع تعديلات، من التأكيد على إمكان السيطرة عبر حلفائها على سوريا كاملة، إلى إمكان تشطي الجغرافيا السورية إلى دويلات، لروسيا إحداها، فيما لـ"إسرائيل" إحداها أيضاً.

لكن مع تبدل الوضع الميداني في سوريا وسقوط الرهانات، اضطرت "إسرائيل" إلى التراجع عن التوقعات والرهانات الزائدة في إسقاط الدولة السورية، نحو التكيّف الاضطراري مع النتيجة التي تبدت ميدانياً، وإن عمدت في المقابل إلى تحويل التهديد إلى فرصة، ما أمكنها ذلك.

جزأت تل أبيب التهديدات وعملت على فصلها بين مركبات ثلاث: الوجود العسكري الروسي الذي لا يمكن معارضته أو التصدي لأهدافه؛ والدولة السورية التي باتت جزء لا يتجزأ من المصالح الروسية المحصنة؛ أما الجانب الثالث، فهم حلفاء سوريا، وتحديداً إيران وحزب الله، حيث بات التركيز الإسرائيلي على تهديدهما وتمركزهما، مع محاولة الفصل بينهما والدولة السورية.

الموقف الإسرائيلي تجاه روسيا كان مرگباً. من ناحية، رأت وما زالت، أن الوجود العسكري الروسي تهديد يفضي في حدّ أدنى إلى تضيق هامش الحركة العسكرية الإسرائيلية ضد أعدائها في سوريا، كما أنه ينهي رهانات كانت حاضرة حتى أمس حول إمكان استبدال الدولة السورية بأخرى طيبة و«معتدلة». من ناحية ثانية، تعاملت "إسرائيل" مع موسكو على إمكان التفاهم معها، من خلال التنازل عن جزء من الرهانات، والتسليم لها ببقاء الدولة السورية، فيما تلمّست في المقابل حرية عمل ضد أعدائها الآخرين: إيران وحزب الله. في الجانب الروسي، لم يكن الموقف سهلاً. موسكو إلى جانب الدولة السورية وحلفائها، تقاتل ضمن مهمة وأهداف مشتركين؛ لكنها كانت أيضاً معنية بدفع «الإزعاج» الإسرائيلي وتحريضه، ومنع التسبب بأضرار للمكاسب الروسية في سوريا. على ذلك، التزمت بالحياد بين الصديق الحليف، أي سوريا وإيران وحزب الله؛ وبين الصديق غير الحليف، أي "إسرائيل". الأمر الذي دفع إلى تفاهم غير مكتوب بين الجانبين: كل يقوم بما يريد، وبما لا يتعارض، مع مصالح الآخر.

في التفاهم، المبني على التسليم الإسرائيلي بمصالح روسيا، تراجع عن استهداف الدولة السورية والسعي لإسقاطها، وهو ما كان خارج القدرة الإسرائيلية في الأساس، وتحديداً ما بعد التدخل الروسي في سوريا، فيما جاء تأكيدها في التفاهم نفسه على الفصل بين سوريا وحلفائها. والهجمات كانت خلال الفترة الماضية، مبنية على هذه الأسس والمنطلقات والشروط، ومع مراعاة المحظورات والموانع الروسية.

في الشكل، والصورة الظاهرية للمشهد السوري والتشابك حوله، تعامل الأطراف مع واقع جديد، كل بحسب تكيّفه ومصالحه وربطاً بأهدافه الرئيسية ورؤيته للآتي، وإن تخللت الفترة الماضية ردود عمدت إلى فرملة "إسرائيل" ومنعها من تجاوز حدّ زائد في هجماتها، في انتظار التغييرات وتطور الموقف الميداني في سوريا.

بناءً عليه بات بالإمكان الإشارة إلى الآتي:

أولاً، مباني التفاهم بين "إسرائيل" وروسيا مبانٍ صلبة نسبياً، مبنية على سياسات مدروسة وهادفة، وتفضي إلى تعاظم متبادل عن المصالح في سياق السعي لتحقيق المصالح الذاتية، حتى تلك المتعارضة منها. حادثة إسقاط الطائرة، وعلى رغم الخسارة الروسية الكبيرة جزاءها، لم تأت في مرحلة تأزم علاقات أو تعارض مصالح حتى التشابك، أو نتيجة التجاسر الإسرائيلي على روسيا، كي يجري التعامل مع إسقاط الطائرة باعتبارها الشرارة التي تشعل الاحتراب. جاءت الحادثة ضمن سياقات التفاهم نفسه الذي لم تنته وظيفته بعد. الضربة في ذاتها لا تحمل إمكانية التصعيد. هذا ما يفسر تشديد الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، أن الحادثة ليست شبيهة ولا يمكن التعامل معها، مع حادثة إسقاط تركيا طائرة «السخوي» عام ٢٠١٥.

ثانياً، على رغم عدم توقع التصعيد والتأزم، إلا أن "إسرائيل" وروسيا، ستعملان على مزيد من الإجراءات الوقائية الحمائية التي لا تسمح بتكرار الحادثة أو ما يشابهها. الإجراءات التي ستعرضها موسكو لن تجد أي معارضة إسرائيلية، إن لجهة الإجراءات التقنية العسكرية الوقائية أو لجهة المديات الجغرافية والحزمات الأمنية حولها. تكرار الخطأ مرفوض من قبل الجانبين، وقد يفضي إلى ما لا يريدانه، وهو ما ستحرص عليه "إسرائيل"، إلى حد التطرف في تطبيقه.

ثالثاً، الواضح، تأسيساً على النقطة الأولى، أن هامش حرية العمل الإسرائيلي ستكون مقيدة، وفي حد أدنى جغرافياً، مع تقليص في القدرة على استخدام جزء من وسائلها القتالية التي تحمل في ذاتها خطراً وتهديداً على الوجود الروسي، وإن نظرياً. هذا يعني تقلص إمكانات "إسرائيل"، وإن نسبياً، في القدرة على فرض إرادتها على أعدائها في سوريا، والتي هي في الأساس مقلصة من حيث النتيجة. هذا ما تخشاه "إسرائيل"، وعبرت عنه بالأمس، بل وكان مدار أبحاث ودراسات صدرت في العامين الماضيين في تل أبيب، حيال النقطة التي تدفع روسيا إلى تحويل وتغيير سياساتها تجاه "إسرائيل". قد تكون ظاهرياً بدت هذه النقطة قريبة جداً في الأمس، لكنها جاءت في توقيت ومرحلة ما زال «شبه التخادم» ضرورة للطرفين، على تفصيل يطول.

رابعاً، كان لافتاً شبه الصمت الإسرائيلي، ومحاولة الاكتفاء بالبيان العسكري كما صدر عن جيش العدو من دون إضافات تذكر. أي الاكتفاء بالإعراب عن «الأسف» وليس الاعتذار، على سقوط قتلى روس، والعمل ضمن ديباجة و«تشاطر» كلامي، على تحميل سوريا وإيران وحزب الله، المسؤولية الكاملة عن إسقاط الطائرة، حتى مع الإثبات أن الفعل العدائي هو إسرائيلي.

يأتي ذلك في موازاة حراك، قيل أنه فاعل جداً من وراء الكواليس، لاحتواء الحادثة والتطلع إلى ما بعدها. لا خلاف أن "إسرائيل" معنيّة بتجاوز هذه الأزمة ومعاودة استئناف الأجندة الموضوعة للساحة السورية، فيما الكرة الآن في الملعب الروسي الذي بإمكانه أن يبقى أو يقلص أو ينهي التفاهات بين الجانبين، وإن كان التقدير أن الموقف الإسرائيلي في «مفاوضات ما وراء الكواليس» في تموضع دفاعي، في محاولة لمنع تقليص هامش مناوراتها في سوريا، مقابل تموضع هجومي روسي، يقدر أنه سيعمد إلى الحد من هامش هذه المناورة والحد منها، لكن من غير المتوقع إنهاؤها بالملق في هذه المرحلة.

خامساً، يتوقع أن تكثف "إسرائيل" رسائلها التهديدية ضد أعدائها في سوريا، أي ضد الدولة السورية وإيران وحزب الله، عبر تصريحاتها ومواقفها وتحليلاتها وكتابات معلقين، بدءاً من رأس الهرم السياسي والعسكري حتى أدنى المعلقين العسكريين في الإعلام العبري. التهديد الإسرائيلي مطلوب لذاته في هذه المرحلة، وهذا ما سترص عليه تل أبيب، إذ إنه يخدم موقفها في التأكيد على الثبات في فرض الخطوط الحمر ضد تمركز الأعداء ومنايع مقدراتهم في الساحة السورية، في إحياء إلزامي، أن حادثة الطائرة الروسية لن تؤثر في التموضع الإسرائيلي الهجومي، وثباته واستمراره بالتوتيرة المتبعة من دون تغييرات، وإن كانت نتيجة هذا المسعى، موضع تساؤل فعلي، وشكوك.

٧ - تقدير وضع:

إن الذي جرى في كارثة الطائرة الروسية، بحسب بعض الخبراء، كان في الواقع محاولة إسرائيلية لتقويض قواعد الاشتباك، التي قيدت بشكل نسبي تحركات الطائرات الإسرائيلية في أجواء سوريا. وما قامت به "إسرائيل" جاء في حقيقة الأمر بناء على خطة معقدة سعت من خلالها إلى تحقيق هدفين، الأول هو التشكيك بقدرات الدفاعات الجوية السورية، تحسباً لإمكانية تسليم سوريا منظومة (إس ٣٠٠) ذات الطابع الاستراتيجي، وبطبيعة الحال التشكيك بقدرة الروس على حماية قواتهم في سوريا. والثاني هو تحرير سلاح الجو الإسرائيلي من القيود المفروضة عليه بموجب الاتفاق مع الروس، بما يضمن له هامش مناورة أوسع لمواصلة الهجمات على الأراضي السورية.

ويشير الخبراء إلى أن رد الفعل الروسي كان متفاوتا بين لهجة عالية على مستوى القيادة العسكرية، وقد عبر عنها وزير الدفاع سيرغي شويغو، وبين لهجة دبلوماسية، لكنها حازمة في الوقت ذاته، وعبر عنها الرئيس فلاديمير بوتين. ورأى هؤلاء أن التحليلات، التي ذهبت إلى حد الحديث عن ضعف الرد الروسي ليست في محلها، خصوصا أن المقاربة الروسية للملف السوري في الوقت الراهن تتطوي على إدراك عميق لمحاولات التشويش على التفاهات بشأن أدلب، وبالتالي فإن ما جرى، وبرغم فداحته، يتطلب موقفا عقلانيا، لا ينجر إلى فخ يراد لروسيا أن تقع فيه من خلال استفزازات كهذه.

ويضيف الخبراء بأن الأساس في الموقف الروسي حاليا يكمن في تجنب الإنجرار وراء كل ما من شأنه تقويض الحل السوري، مع الاعتقاد بأن الرد الفعلي على الاستفزاز الإسرائيلي قد بدأ فعلا، خصوصا بعد زيارة قائد سلاح الجو الإسرائيلي إلى موسكو، وما تردد عن أن التوضيحات الإسرائيلية لم تكن كافية، وبالتالي فإن المرحلة المقبلة ستشهد تقييدا إضافيا في قواعد الاشتباك، على حساب "إسرائيل"، التي لن تكون بعد اليوم قادرة على المغامرة بأي استفزاز جديد.

ثمة من يتساءل حول ما اذا كان للعملية تداعيات خاصة بعلاقة "إسرائيل" العدائية مع إيران أم أن العملية تهدف في المقام الرئيس إلى إظهار مخاطر المساندة الروسية الكاملة للنظام السوري على "موسكو" دون وضع مصالح "إسرائيل" في الاعتبار؟ أم أن العملية لها أهداف أخرى خاصة مع تزامن إطلاق فرقاطة فرنسية لعدد من الصواريخ على الأراضي السورية تزامنا مع حادث إسقاط الطائرة الروسية، والذي تزامن مع قيام "إسرائيل" بضربات جوية قامت بها طائرات "إف - ١٦" الإسرائيلية في الأراضي السورية، على بعض الأهداف التي قالت تل أبيب إنها إيرانية، وبما يدل على وجود تنسيق فرنسي إسرائيلي في هذه العملية.

كما أن ردود الأفعال التي أفرزتها عملية إسقاط الطائرة الروسية تدعو إلى التساؤل أيضا عما تحتويه جعبة موسكو في مواجهة تل أبيب للرد على مثل هذا العمل الذي وصفه "وزير الدفاع الروسي سيرجي شويجو" بأنه عمل استفزازي، واتصاله هاتقيا بنظيره الإسرائيلي أفيجدور ليبرمان وإخباره بأن موسكو تحمل "إسرائيل" المسؤولية الكاملة عن إسقاط الطائرة لأن الطيران الإسرائيلي عرض الطائرة الروسية للخطر عبر التحليق بالقرب منها، واتخاذها ستارا لعمليتها في اللاذقية، وهو ما حدا بالمضادات الصاروخية السورية اعتبارها هدفا معاديا نظرا لصغر حجمها عن الطائرة "إف - ١٦". وعلى الرغم من توصل تركيا وروسيا

إلى اتفاق بشأن إدلب إلا أن الضربات الجوية على اللاذقية تؤثر إلى أن الخطوات غير المحسوبة لأي طرف سوف تؤدي إلى أخطاء لها تبعات خطيرة، وقد تؤدي إلى تصعيد محتمل بين الأطراف اللاعبة على الأرض السورية خاصة بين "موسكو، وتل أبيب"، وقد يكون المقصد من المسلك الإسرائيلي من وراء هذا العمل الذي اعتبرته موسكو عدائيا ، هو خلق مشكلات تحول دون تنفيذ اتفاق الرئيسين الروسي " فلاديمير بوتين"، والتركي "رجب طيب أردوغان" الخاص بـ "إدلب"، إلا أن الكرملين قال في بيان له إن حادث إسقاط الطائرة الروسية قبالة السواحل السورية لن يؤثر على اتفاق الرئيسين بوتين، وأردوغان، المتعلق بمحافظة إدلب في سوريا، كما أكد المتحدث باسم الرئاسة الروسية ديمتري بيسكوف أن الحادث لن يؤثر على الاتفاق التركي الروسي القاضي بإقامة منطقة منزوعة السلاح بين مناطق النظام والمعارضة بمحافظة إدلب شمال غرب سوريا لأن هذا الاتفاق هام ومصيري لمستقبل سوريا.

وفيما يبدو أن الحادث سوف يلقي بظلاله على العلاقات الروسية الإسرائيلية، خاصة في مسألة التنسيق العملياتي على الأرض السورية، كما قد تعتبر موسكو، أن أية اختراقات للطائرات الإسرائيلية في الأجواء السورية القريبة من قواعدها عملا عدائيا، مع عدم إغفال إمكانية موسكو إسقاط هذه الطائرات عن طريق منظومتها الصاروخية المتقدمة " إس - ٤٠٠"، يشير إلى ذلك إعلان وزارة الخارجية الروسية استدعاء السفير الإسرائيلي لدى موسكو ، على خلفية الحادث، إضافة إلى إبلاغ وزير الدفاع الروسي سيرجي شويجو نظيره الإسرائيلي أفيغدور ليرمان أن بلاده تحتفظ بحق الرد المناسب، وأن المسؤولية عن تحطم الطائرة الروسية "إيل-٢٠" ومقتل طاقمها في سوريا، تقع بالكامل على الجانب الإسرائيلي، وأن وزارة الدفاع الروسية دعت مرارا الجانب الإسرائيلي إلى ضبط النفس بشأن الهجمات على الأراضي السورية ، التي تهدد الجنود الروس.

إضافة إلى ذلك نشرت وزارة الدفاع الروسية خارطة ما أسمته " الكمين الإسرائيلي" يبين حركة الطائرات الإسرائيلية والروسية "إيل-٢٠" قبل إسقاط الأخيرة، كما يبين الرسم البياني للوزارة أن المقاتلات الإسرائيلية اقتربت من مسار طائرة "إيل-٢٠" الروسية، وبعد ذلك أطلقت الصواريخ العالية الدقة " جي بي يو - ٣٩" بمدى إطلاق يبلغ ١١٠ كيلو مترات، وأن منظومة الدفاع الجوية للنظام السوري التي كانت تتبع طائرة "أف-١٦" الإسرائيلية، اعتقدت في نهاية المطاف أن الطائرة الروسية عدو، وأسقطتها، وأن الطيارين الإسرائيليين دفعوا الطائرة الروسية إلى مسار أنظمة الدفاع الجوي السورية، وأن الوقت لم يكن كافيا لإبعاد الطائرة الروسية

عن دائرة الخطر. وفي كل حال يتفق العديد من الخبراء على أنه في نهاية المطاف، سيتعين على "إسرائيل" وروسيا إقامة علاقة تتيح لكل منهما الدفاع عن مصالحه المختلفة من دون أن يقيد ذلك إلى حدٍ كبير قدرة "إسرائيل" على التدخل في البلد المجاور الذي توعدت تكرارا بمحاربة تموضع إيران فيه.

٨- تقديرات الصحافة الإسرائيلية:

تحدثت الصحف الإسرائيلية عن حالة الترقب التي تملأ وجوه القادة السياسيين، نظرا لتوتر العلاقات مع موسكو على خلفية إسقاط الطائرة الروسية في سوريا ومقتل ١٥ جنديا روسيا.

وقالت صحيفة "يديعوت أحرونوت" في مقالها الافتتاحي إن "الحملة العسكرية الإسرائيلية الأخيرة في سوريا مهما كانت ذكية، إلا أنها انتهت بأزمة دبلوماسية لا داعي لها مع قوة عظمى عالمية"، مؤكدة أن "تحقق الأهداف العسكرية لا يعني نجاح العملية، بل على العكس فإن هذا فشل لأنه في الشرق الأوسط لا توجد وجبات بالمجان"، بحسب تعبيرها.

وأوضحت الصحيفة أن "إسرائيل ستدفع الثمن بعد فقدان موسكو طائرة استخبارية إلكترونية على متنها ١٥ ضابطا، من خبراء الاستخبارات ورجال الفريق الجوي"، مضيفة أنه "صحيح لن ينفذ الروس صباح غد عملية رد ضد قواعد سلاح الجو، مثلما اقترحوا في اللجنة الأمنية للبرلمان الروسي، لكن إسرائيل ستكون مطالبة الآن أكثر مما في الماضي بأن تكيف سلوكها ضد أهداف على الأرض السورية مع المصالح الروسية".

وأشارت إلى أن "النتائج واضحة في الميدان بشكل فوري"، مبيّنة أن "السلطات اليونانية أعلنت أمس بأن الروس أوضحوا أن نيتهم أن ينفذوا ابتداء من اليوم مناورة جوية مفاجئة على مدى ستة أيام، في المساحة التي بين نيقوسيا والمنطقة التي استخرجت منها أجزاء من الطائرة التي أسقطت في البحر أمام اللاذقية".

ورأت أن "ذلك يوضح أن المنطقة الجوية الكبرى هذه ستكون مغلقة تماما أمام الطيران من كل نوع مهما كان"، معتقدة أن "هذه هي المرحلة الأولى في النية الروسية لإغلاق منطقتين لدخول الطائرات الأجنبية في منطقة الشاطئ السوري وفي دمشق، ما سيقيد جدا كل نشاط إسرائيلي جوي في هاتين المنطقتين، وهذا هو الرد الفوري على إسقاط الطائرة".

وذكرت الصحيفة أن "القيادة الإسرائيلية تصبّت عرقاً بما يكفي بعد إسقاط الطائرة الروسية"، مؤكدة أن "الروس فهموا بعد هذه الحادثة أن بإمكانهم تحقيق إنجازات إستراتيجية حيال إسرائيل، ولهذا فلم يسارعوا ليوجهوا الاتهامات على الفور، واستغرق الأمر ١٢ ساعة لدراسة وتحليل الحدث". وفي السياق ذاته، قالت صحيفة "هآرتس" في مقال لكايتها عاموس هرئيل إن "هناك تعقيدات في العلاقات بين روسيا وإسرائيل"، موضحة أن "روسيا تستطيع أن تطالب بتحذير مسبق لوقت أطول قبل الهجمات أو أن تحدد مناطق حظر طيران للطائرات الإسرائيلية أو تزويد الأسد بأنظمة دفاع جوية حديثة، والتي امتنعت حتى الآن عن تزويد نظام الأسد بها".

واعتبرت الصحيفة أن "الحادثة أوقعت إسرائيل في ورطة مع الروس، ما قد يؤثر بصورة سيئة على حرية العمل الإستراتيجي التي يتمتع بها سلاح الجو الإسرائيلي في الجبهة الشمالية"، مشددة على أن "إسرائيل ما زالت تنتظر رؤية ما هي الخطوات التي ستتخذها روسيا". وتوقعت أن "تطلب موسكو من تل أبيب إعطاءها تحذيراً مبكراً أكثر قبل الهجمات، أو تحديد منطقة محظور للطيران الإسرائيلي التحليق فيها والقريبة من قواعدها العسكرية في شمال سوريا"، مضيفة أنه "يجب أن نتذكر دائماً الدرس الأول في التاريخ العسكري وهو لا تلعب مع الروس".

حول تصريحات بوتين بأن بلاده ستتخذ خطوات لحماية رجالها ومنشآتها في سوريا، قالت الصحيفة الإسرائيلية "في حال قررت روسيا أن تظهر طوال الوقت خطأ متشددًا، فإنها تستطيع التشويش على حرية العمل الإسرائيلية في سماء سوريا، لا سيما في شمال غرب الدولة".

من جهته، قال الكاتب الإسرائيلي في صحيفة "معاريف" يوسي ميلمان، إن "إسرائيل ستضطر إلى التدقيق أكثر بالنسبة للمنطقة التي ستعرض لأي هجوم قادم"، مؤكداً أن "إسقاط الطائرة الروسية يخدم مصلحة نظام بشار الأسد، الذي يفهم لعبة الكرملين المزدوجة".

وفسر ميلمان تصريحات بوتين التي جاءت أقل حدة من بيان وزارة الدفاع الروسية، أنها "ستدفع إسرائيل إلى تحسين تنسيقها مع روسيا، كي لا تتكرر الحادثة الأخيرة"، مشيراً إلى أن "بيانات التنسيق الإسرائيلية السابقة إلى روسيا لا تسلم إلا قبل وقت قصير من الهجوم، وهي عمومية جداً، ولا توضح أهداف الهجوم". وتوقع أن "يحدث تغيير في هذه البيانات، وستضطر إسرائيل إلى أن تستبق بوضع دقائق الإخطار بالهجوم"،

مستدركا بقوله إنه "لا يزال لإسرائيل حرية عمل ومناورة للعمل في سوريا، لأن بوتين لم يقل لا بعد، وبتعابير كرة القدم لم يرفع لإسرائيل سوى بطاقة صفراء"، بحسب تعبيره.

والأمر الحاسم، بحسب المحلل العسكري في صحيفة معاريف ليف رام، هو "مسألة حرية العمل التي تمنحها روسيا لإسرائيل. وإذا شئنا أم أبينا، فإن إسرائيل متعلقة بروسيا بهذا الخصوص. وروسيا هي دولة عظمى عالمية وإسرائيل ليست كذلك، رغم أننا نميل إلى نسيان ذلك أحيانا. ويبرز هذا الأمر خصوصا مقابل ضعف الولايات المتحدة في المنطقة. ورغم أهمية الدعم الأميركي لإسرائيل ضد الفلسطينيين، لكن أهمية الولايات المتحدة كانت دائما بقدرتها على توفير دعم لإسرائيل ضد دول عظمى أخرى. ويبرز جدا في الحدث الحالي عدم قيام الأميركيين بأي عمل".

ورأى المحلل العسكري في صحيفة "يديعوت أحرونوت"، أليكس فيشمان، أن نصب صواريخ "إس - ٣٠٠" في روسيا يعني أن أي طائرة إسرائيلية تحلق في وسط إسرائيل على ارتفاع عشرة آلاف قدم "ستكون مهددة عمليا". ولفت إلى أن روسيا زودت دولاً أخرى بصواريخ كهذه، وبينها إيران وأذربيجان. ولفت أيضا إلى أن قوات إسرائيلية عملت في تفعيل منظومة "إس - ٣٠٠" إلى جانب جنود في دول اشترت هذه المنظومة. لكن فيشمان أشار إلى أن "طريقة عمل سلاح الجو الإسرائيلي ضد أهداف في عمق الأراضي السورية ستكون معقدة أكثر". ورغم ذلك، فإن "مشكلة إسرائيل مقابل هذه الخطوة الروسية ليست عسكرية وإنما سياسية. فالتحديات في المستوى العسكري هي تكنولوجية وتكتيكية، وفي هذا الملعب إسرائيل جيدة بشكل لا يقل عن الروس. بل أن تدمير أهداف بشكل دقيق في الأراضي السورية يمكن تنفيذه بواسطة منظومة صواريخ وقذائف صاروخية".

وأضاف فيشمان أنه في مقابل ذلك، لا توجد لـ "إسرائيل" في الملعب السياسي إجابة جيدة على الشرخ الحاصل مقابل الروس. وقد تفقد "إسرائيل" أداة إستراتيجية هامة لمكانتها في الشرق الأوسط، وهي العلاقات مع الروس التي سمحت لها بحرية العمل في سورية حتى الآن. وهذه العلاقات، التي بنيت وتمت صيانتها طوال السنوات الثلاث الأخيرة تلقت ضربة الآن. ولم يتضح بعد حجم الضرر. والروس لا يريدون، حتى الآن، التحدث مع إسرائيل حول مستقبل العلاقات".

وتابع فيشمان أن "إسرائيل" ستواجه مشكلة في قصف بطاريات "إس - ٣٠٠" في سورية، وهي مشكلة سياسية. "فعندما تتلقى طائرة مقاتلة إسرائيلية أمرا بتدمير إس - ٣٠٠ في الأراضي السورية، سيكون واضحا لمن يصدر الأمر أنه يجلس في هذه البطارية روس كمشغلين ومرشدين. ويعني ذلك الدخول في مواجهة مباشرة مع الجيش الروسي". واعتبر فيشمان أن تزويد روسيا لسورية هذه المنظومة وليس صواريخ "إس-٤٠٠" الأكثر تطورا، "يلمح إلى أن الروس ما زالوا يلجمون أنفسهم".

ووفقا لفيشمان، فإن علاقات إسرائيل وروسيا هي "أحد عناصر القوة الإستراتيجية الإسرائيلية في الشرق الأوسط. وعندما يتكرر الروس للعلاقات مع إسرائيل فإن هذا يضعفها، إذ أن هذا يعني إعطاء ضوء أخضر لجهات مُعادية، مثل إيران، لاستغلال الفترة القريبة من أجل أن تنقل إلى لبنان أسلحة تنطوي على إشكالية بالنسبة لإسرائيل، مثل صواريخ دقيقة وصواريخ مضادة للطائرات. وستضطر إسرائيل إلى أن تقرر ما إذا كانت ستواصل سياستها (بضرب قافلات الأسلحة) وتخاطر بتعميق الأزمة مع الروس، أم أنها ستستقيم مع الخط الروسي".

كذلك شدّد المحلل العسكري في صحيفة "إسرائيل هيوم"، يوءاف ليمور، على أن إسقاط الطائرة الروسية، كان حدثا تكتيكيا، ووجدت "إسرائيل" نفسها الآن في أوج أزمة إستراتيجية يمكن أن تؤثر على مستقبل الجبهة الشمالية. وهجمة الرسائل الروسية في الأيام الأخيرة لا تُبقي مكاناً للشك حتى لدى المتشائمين في "إسرائيل"، الذين اعتقدوا أن الحديث عن خطأ سيعبر سريعا. ووزير الدفاع الروسي شويغو لا يعمل في فراغ، فهو إحدى الشخصيات المحبوبة في روسيا، وخطواته منسقة بالكامل مع الرئيس بوتين".

وأضاف ليمور أن "روسيا ليست إلى جانب إسرائيل، ولم تكن كذلك أبدا. إنها تقف إلى جانبها هي، مع ميل بارز إلى جانب سورية، حليفها وتوفر لها الأمن كي تتمتع بالمستقبل بثمار إعمارها الاقتصادي".

ورأى ليمور أن أكثر ما يثير القلق ليس نصب صواريخ "إس - ٣٠٠"، وإنما يجب أن يكون تجاه "التصريح غير المفسر بسدّ موجات البث اللاسلكي بحيث تقيد الطائرات المهاجمة من منطقة البحر المتوسط. وسلاح الجو الإسرائيلي يستند إلى تقنيات متطورة، والأسلحة التي يطلقها، خاصة في هذه الهجمات، دقيقة وتعتمد على GPS. وليس واضحا ما الذي يخطط له الروس، ومدى صمود الأجهزة الإسرائيلية - الأميركية أمامهم، لكن هذا تهديد يجب أخذه بالحسبان ليس فقط لأنه سيدخل روسيا وإسرائيل إلى مواجهة مباشرة، وإنما

لأنه ينطوي على احتمال تشكيل خطر على حياة الطيارين الإسرائيليين وتشويش أجهزة وإفشال عمليات هجومية".

وأشار إلى أن "تبعات إسقاط الطائرة سترافق العمليات (الإسرائيلية) في الشمال في المستقبل المنظور. ولا شك في أن طهران ستحاول وضع مصاعب أكبر أمام إسرائيل وتوريطها مع الروس مرة أخرى". من جانبه، هاجم المحلل العسكري في صحيفة "هآرتس"، عاموس هرئيل، رئيس الحكومة الإسرائيلية، بنيامين نتنياهو، وكتب أن "نتنياهو غير قادر على جعل هذه المشكلة (مع الروس) تختفي". ورأى أنه "يبدو حتى الآن أن الخطوات الروسية ستكون بتقييد كبير لحرية العمل الإسرائيلية في سماء سورية". ولفت هرئيل إلى أن الطيران الحربي الإسرائيلي تدرب على مواجهة صواريخ "إس - ٣٠٠" التي باعها روسيا إلى قبرص وصواريخ كهذه موجودة بحوزة اليونان أيضاً. "وعلى الأرجح أن سلاح الجو قادر على إيجاد أساليب عمل تقلص الخطر من هذه المنظومة".

وفي ما يتعلق بالتصريحات الروسية حول مسؤولية إسرائيل عن إسقاط الطائرة، أشار هرئيل إلى أن روسيا توجه اتهامات للجيش الإسرائيلي، "بينما لا تذكر المستوى السياسي الإسرائيلي، باستثناء ادعاء عام حول السياسة الهجومية الخطيرة التي تنتهجها إسرائيل في سورية".

٩ - منظومة الدفاع الجوي إس ٣٠٠:

بعد أسبوع من إسقاط طائرة إليوشين-٢٠ الروسية فوق البحر المتوسط في حادثة أدت إلى مقتل ١٥ عسكرياً روسياً، صعد الكرملين خطابه تجاه الدولة العبرية التي كانت تشن تزامناً مع الحادثة غارات على شمال غرب سوريا، ولم تأل جهداً لمحاولة إقناع موسكو بحسن نيتها. وفي خطاب متلفز شرح وزير الدفاع الروسي سيرغي شويغو الإجراءات التي قررتها موسكو لتعزيز الدفاعات الجوية السورية رداً على الحادثة، حيث قال: "لدينا اقتناع بأن وضع هذه الإجراءات قيد التنفيذ سيردع المتهورين عن القيام بأفعال تهدد سلامة جنودنا، وإلا فإننا سنرد بالشكل المناسب". وأعلن الجيش الروسي أن روسيا ستسلم الجيش السوري منظومة صواريخ الدفاع الجوي إس-٣٠٠ الحديثة خلال أسبوعين. وكان قرار تسليم هذه المنظومة اتخذ في عام ٢٠١٠ لكنه لم ينفذ بسبب المعارضة الإسرائيلية. وأكد شويغو أن هذه المنظومة "قادرة على اعتراض طائرات

على بعد أكثر من ٢٥٠ كلم وقادرة على ضرب أهداف جوية عدة في آن واحد". وتتولى القوات الروسية حالياً تشغيل صواريخ إس-٣٠٠ المنتشرة قرب القاعدة البحرية في طرطوس، وصواريخ إس-٤٠٠ الأكثر تطوراً المنتشرة في محيط قاعدة حميميم الجوية في غرب سوريا. وقال وزير الدفاع الروسي إن "الملاحه عبر الأقمار الاصطناعية ورادارات الطائرات وأنظمة اتصالات الطائرات الحربية التي تهاجم أهدافاً أرضية ستعرض للتشويش في المناطق المحاذية لسوريا في البحر المتوسط". وأبلغ الرئيس الروسي فلاديمير بوتين حليفه الرئيس السوري بشار الأسد بهذه الإجراءات خلال محادثة هاتفية هي الأولى بينهما منذ إسقاط الطائرة الروسية من طريق الخطأ.

في هذا السياق يقول سيرغي بالماسوف، الخبير في معهد الشرق الأوسط، إن روسيا تملك العديد من الطرق المباشرة وغير المباشرة لإلحاق الضرر بمصالح "إسرائيل"، في حال قرّرت المضي في الاتجاه السلبي. وأضاف بالماسوف: "بعد الحادث سوف تنهي موسكو بصفةٍ شبه مؤكدة تسليم نظام إس-٣٠٠ المضاد للطائرات، الذي باعته للجانب السوري في وقتٍ سابق". ويطرح بالماسوف أن روسيا تمدّ الجانب السوري بجنود روس لتشغيل تلك الأنظمة، وأضاف: "إن قرارات روسيا سوف تُحدّد مدى حرية حركة القوات الجوية الإسرائيلية في المجال الجوي السوري". ويطرح الخبراء أن روسيا تملك خياراتٍ أخرى، كأن تمدّ الأطراف التي تعدّها إسرائيل أعداءها، مثل إيران وحزب الله، سراً بالأسلحة، أو أن تُهدّد بإسقاط أي طائرة إسرائيلية تقترب من المجال الجوي السوري، أو أن تشنّ الهجوم على أهداف عسكرية في "إسرائيل" ذاتها. وبالتأكيد، لن يفيد تصعيدٌ كهذا "إسرائيل" ولا روسيا، والكرة الآن في ملعب "إسرائيل" كي تمنع ذلك. وتتوقع الشبكة الروسية أن يناقش كلا الجانبين غالباً الحادثة بصفة غير رسمية في هذه المرحلة، لكنّ تحديد ما الذي سيُعلن من التفسيرات أو الاعتذارات، التي قد تقدّمها "إسرائيل" إلى روسيا، مسألةً مختلفةً تماماً. وصرّح نيكولاي سوركوف، الخبير في معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية، لشبكة RT الروسية قائلاً، إن حقيقة أن روسيا قد أعلنت اتهاماتها بهذه السرعة "تظهر مدى غضب روسيا من التصرفات غير المسؤولة" من جانب الإسرائيليين.

وقال ميرزاين إن رئيس الوزراء الإسرائيلي بإمكانه أن يمنع تقاوم الوضع بأن يعلن اعترافه باقتراح خطأ، ويعرض تقديم تعويض. وأضاف مرزاين أن "إسرائيل" إذا التزمت الصمت، وتتصلت من المسؤولية، أو ألقت

باللوم على السوريين، فسوف تواجه تبعات خطيرة". وحتى الآن، قالت القوات الجوية الإسرائيلية إنَّ خسارة طائرة إيلوشين-٢٠ "المؤسفة" ليست مسؤوليتها، بل مسؤولية سوريا وإيران وحزب الله. وبينما وصفت موسكو التصرفات الإسرائيلية بأنها "متهورة" و"عدائية"، وأعلنت وزارة الدفاع إعلاناً قاطعاً أنَّ المقاتلات الإسرائيلية تعمّدت استخدام الطائرة كغطاء، خفّف بوتين لاحقاً من حدة التوتر نوعاً ما، بقوله إنَّ إسقاط الطائرة إيلوشين-٢٠ يبدو حادثاً مأسوياً أكثر من أيّ شيءٍ آخر. تقول الشبكة الروسية: "يؤمن البعض بأنَّ هذه إشارة إلى أنَّ الحادثة سرعان ما قد تذهب طي النسيان، وأنَّ الضرر الذي ستلحقه بالعلاقات الروسية الإسرائيلية سيكون قليلاً نسبياً". وقال نيكولاي سوركوف، الباحث الكبير بمعهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية في موسكو: "كلُّ شيءٍ نُقِّدَ من أجل منع حوادث كهذه". لكنه يؤمن أنَّ كلا النظامين، الروسي والإسرائيلي، يتفهمان أنَّه في بعض الأحيان تحدث أشياءٌ كذلك. ومع وجود الشراكة الوثيقة بين البلدين، لن يستفيد أيٌّ منهما من إلحاق الضرر بالعلاقات بينهما بسبب الحادث المأساوي. وقال غريغوري لوكيانوف، الأستاذ في المدرسة العليا للاقتصاد بروسيا: "أعتقد أنها كانت حادثة. لم تستهدف إسرائيل عمداً قتل جنود روس ولا تدمير أهداف روسية". بينما يؤمن لوكيانوف أنَّ هذه القضية سوف تثير جدلاً حاداً في الرأي العام بشأن حالة العلاقات بين البلدين، وكلاهما في النهاية مهتمّ بالحفاظ على التعاون في القضايا الملحّة، ولن يتركا هذا الحادث يفسد ذلك. تشمل تلك القضايا الصراع السوري، والعلاقات بين إسرائيل وإيران، حيث تجد روسيا نفسها في موقف الوسيط.

هذه التوترات تشكل مثلاً على مدى تعقيد النزاع الذي اندلع في عام ٢٠١١ في سوريا التي باتت مسرحاً لتدخل دول عدة أحياناً متناقضة المصالح من القوى الغربية إلى إيران مروراً بتركيا. وتحمل موسكو "إسرائيل" مسؤولية إسقاط الدفاعات السورية لطائراتها مؤكدة أن الجيش الإسرائيلي لم يبلغها بتنفيذ مقاتلاته غارات على اللاذقية إلا قبل دقيقة واحدة من شنّها، وأن الطائرات الإسرائيلية استخدمت الطائرة الروسية "غطاء" لها لتقادي الصواريخ السورية، لكن إسرائيل تنفي ذلك. والأحد أكد الجيش الإسرائيلي أن مقاتلاته "لم تختبئ خلف أي طائرة وأنها كانت في المجال (الجوي) الإسرائيلي عندما أسقطت الطائرة الروسية".

وقال المتحدث باسم الكرملين ديمتري بيسكوف "بحسب معلومات خبرائنا العسكريين، فإن السبب هو تصرف متعمّد من الطيارين الإسرائيليين، وهذا الأمر لا يمكنه إلا أن يضرّ بعلاقتنا" مع "إسرائيل". وأضاف

أن "الطائرة (الروسية) لم تسقط بصاروخ إسرائيلي، والحمد لله. إلا أن تصرف الطيارين الإسرائيليين" هو ما سمح بوقوع الحادثة. وأكد المتحدث أن قرار تسليم سوريا صواريخ إس-٣٠٠ "ليس موجهاً ضد أي بلد، بل (اتخذ) دفاعاً عن جنودنا" في سوريا. ومنذ ٢٠١٥ تنتشر روسيا قوات في سوريا دعماً لنظام الأسد، وهو ما سمح له باستعادة قسم كبير من أراضي البلاد. ويشكل إسقاط الطائرة الروسية أخطر حادثة تشهدها آلية "الخط الساخن" التي تم التوصل إليها في ٢٠١٥ لتجنب حصول مواجهات روسية-إسرائيلية في سوريا. وفي محاولة لسحب فتيل الأزمة توجه قائد سلاح الجو الإسرائيلي شخصياً إلى موسكو لتقديم أدلة تبرئ بلاده من الحادثة.

١٠ - خاتمة:

منذ أن تسبب الطيران الإسرائيلي بإسقاط الطائرة الروسية في الأجواء السورية، وموسكو تعمل على مبدأ التصعيد، حيث نشرت وزارة الدفاع الروسية بياناً أكدت فيه على أن الكيان الإسرائيلي يتحمل المسؤولية كاملة، وأكدت على أنها ستحتفظ بحق الرد، ومؤخراً رفض الرئيس الروسي فلاديمير بوتين استقبال قائد سلاح الجو الإسرائيلي عميكام نوركين، في الوقت الذي اجتهد فيه الكيان لتقديم الاعتذارات والمبررات لروسيا.

لقد شهدت العلاقات الثنائية المشتركة بين الطرفين خلال الحقبة الماضية تطوراً مهماً في المجالات الاقتصادية والتجارية والعسكرية والأمنية، فضلاً عن العلاقات السياسية، كما مرّت هذه العلاقات في مراحل تأزم وتوتر وبرود بسبب السياسات العدوانية الإسرائيلية، وتجاهل الحقوق المشروعة للشعوب العربية عامة، ومواصلة عمليات الإستييطان والحصار والعدوان في فلسطين خاصة، وبسبب المواقف الإسرائيلية المتخوفة من التوجهات الروسية الطموحة وعلاقاتها بدول المنطقة ومنها إيران وسوريا، وبسبب تطّلع روسيا إلى المنطقة كمصدر مهم للدخل بخاصة من ناحية تصدير الأسلحة، إذ تنفق دول المنطقة أموالاً طائلة على التسليح.

والواقع أن العلاقات الروسية الإسرائيلية بصورة أبعد وبمنظور أشمل تقوم على مبدأ المثل الإسرائيلي القديم القائل: "إنني أحترمه، ولكنني أحذر منه" هو أساس موقف "إسرائيل" من روسيا وسيستمر كدليل لها في المستقبل. وبالنسبة لروسيا فإن لها عدة أهداف من وراء توثيق العلاقات مع "إسرائيل" كقوة إقليمية مهمة في الشرق الأوسط حيث تسعى روسيا إلى إضعاف الولايات المتحدة، والإمساك بالشرق الأوسط، بوصفه جزءاً من

استراتيجيتها العالمية. وفيما يخص تعارض تصدير السلاح والمعدات الى أعداء "إسرائيل" في المنطقة، وهما اثنتان من أذرع النفوذ الروسي في الشرق الأوسط، مع المصالح الإسرائيلية، سواء في المستوى التاريخي أو في الوقت الراهن، فقد مثلت تلك الأسلحة الروسية الصنع العمود الفقري لترسانة الأسلحة المعادية لـ "إسرائيل". وعلى الأثر ظهرت القدرة الإسرائيلية المحدودة في منع بيع الأسلحة الروسية في المنطقة، وأظهرت الصفقات الأخيرة بين إيران وروسيا هذا الأمر بجلاء.

على صعيد آخر فشلت محاولات شركة النفط الروسية "غاز بروم" في السيطرة على استخراج الغاز في حوض شرق البحر المتوسط ويفترض أن يكون ذلك عائداً إلى الممانعة الإسرائيلية. كما وقّعت مؤخراً أنقرة وتل أبيب اتفاق مشروع عملاق لتصدير الغاز من إسرائيل إلى تركيا وأوروبا، وقد يخفض هذا المشروع ارتباط تركيا وأوروبا بالغاز الروسي، مما قد يشكل تنافساً بين روسيا وإسرائيل في مجال الطاقة ويبرز تضارب المصالح الإسرائيلية الروسية.

على الساحة الدولية تحاول "إسرائيل" أن تتوخى أقصى درجات الحذر في ما يخص القضايا المهمة لروسيا. ففي الجلسة التي عقدت منتصف ٢٠١٤، والمخصصة للتصويت على قرار يدين التدخل الروسي في أوكرانيا، تلقى المندوب الإسرائيلي أمراً بالخروج من القاعة، مغضباً الإدارة الأميركية، كما لم تحظ الهجمات التي يشنها القراصنة الروس على شبكات الإنترنت، ثم إن سياسة بوتين الداخلية القمعية لم تحظ من الحكومة الإسرائيلية بأي اهتمام. وعلى الرغم من سجل روسيا في ما يخص التصويت في مجلس الأمن وفي الجمعية العامة للأمم المتحدة على قضايا، التي كانت في معظمها سلبية تعاملت إسرائيل معه بوصفه شئ طبيعي لا يستدعي الاعتراض عليه.

على ضوء حادثة إسقاط الطائرة الروسية يتوقع أن يكون مسار العلاقات الروسية الإسرائيلية المستقبلي مشابهاً للسيناريو الآتي:

أ- ثمة اهتمام من الطرفين، مستمر بالرغم من أي شيء، بالمحافظة على مظهر الصداقة، والفائدة المتبادلة التي يجنيانها من الارتباط بينهما.

ب- ازدياد التوتر في العلاقات الروسية الأميركية، والعلاقات الروسية الأوروبية سيولد الضغوطات على "إسرائيل" التي ستجد نفسها في مأزق سياسية، ما يجبرها على تصويب سياستها بصورة دائمة للحفاظ على

مصالحها مع حليفها الدائم " الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى إعادة النظر في علاقاتها بنظام بوتين الذي يرفع راية التحدي الدائم للغرب .

ج - إذا استمرت الصراعات في الشرق الأوسط في خلق الأزمات، فإنّ روسيا و"إسرائيل" ستجدان نفسيهما في لحظة ما على طرفي نقيض. ووجود مواقف مختلفة حول القضايا المطروحة في ظلّ تغيّر الإدارة الأمريكية التي تسعى إلى استعادة الدور الأمريكي في الشرق الأوسط أي رجوع التنافس بين القوتين الروسية والأمريكية في حرب باردة جديدة بعد أن خفّت حدّتها في عهد الرئيس أوباما الذي اتّبع مبدأ التدخل الإنتقائي، سوف يجعل من محاولة وقدرة روسيا و"إسرائيل" على تبني حل وسط لمصالحهما المتضاربة محل اختبار دائم.